# الفصل السابع

## إرشاد قومى

ألقى طلعت حرب فى ٢٩ و٣٠ من مارس سنة ١٩٢٧ خطبة ، بمناسبة عرض باكورة إنتاج شركة مصر للتمثيل والسينما، من الأشرطة التسجيلية والإخبارية، ونحن نستطيع أن نعرف، قيمة هذه الأشرطة، باعتبارها، عملاً تجريبيًا، وبداية مشوبة بكل عيوب وآفات ، العمل الأول، لا سيما فى ميدان، بقينا فيه لفترة طويلة جدًا، بدائيين، وأذواقنا فيه فجة، ووسائلنا الآلية ناقصة وأسلوبنا سوقى.

ولكن طلعت حرب انتهز هذه الفرصة ليسمع الوزراء والنواب والصحفيين كلامًا طويلاً جدًا تحدث فيه عن (السينما) وقدرتها، وعما يمكن أن تنتجه شركة السينما المصرية ، لمصر من الأشرطة فى مختلف دروب الحياة من إعلانية وتجارية، ومن تعليمية، ومن تسجيلية، ومن إخبارية، ومن دعائية سياحية، ودعائية سياسية، وتثقيفية، وترفيهية، وأفاض فى وصف كل لون من ألوان هذه الأشرطة ، كأنه فى حلم من أحلام اليقظة، يرى فيه، وعيناه مفتحتان، ما يراه النائم، من لذيذ الآمال.

وقد عاش طلعت حرب بعد ذلك الخطاب نحو ربع قرن، وعاشت معه جريدة مصر الناطقة، وشركة مصر للتمثيل والسينما، فلم تحقق تقريبا عشر معشار، ما رسمه لها من خطة، وما وضعه من منهج للعمل.

فما سر هذا الخطاب العجيب، الذى يشبه حديث داع دعا ضيوفه إلى طبق من الفول المدمس بالزيت، ثم راح يحدثهم عما كان يمكن أن يقدمه لهم من الخراف المحمرة، والدجاج المحشو، وأصناف الحلوى شرقية وغربية، قديمة وحديثة، محلية وعالمية، وما يصنع منها بالسمن،

وما يعجن بالزيت وما يحشى بالنقل، وما يحلى بالقشدة، وما يؤكل باردًا مثلجًا، وما يؤكل حارًا ساخنًا، وما يأكله الناس وقوفًا، وما يأكلونه جلوسًا، وما يأكلونه سائرين، ومزايا ولذائذ ولطافة كل منها.

سر هذا الخطاب أن طلعت حرب، رجل حريص على أن يقدم نفسه إلى الناس، في إطار من الوقار، بغير إلحاح ولا مبالغة، في التحدث عن علمه، أو الإشادة بفضله، ولكنه كان يعلم شدة حاجته كزعيم سياسي، يتخفى في ثوب اقتصادى ، إلى الدعاية. ولست أشك لحظة في أن الناس الذين سمعوا طلعت حرب في هاتين الليلتين المتعاقبتين، قد بهرهم أسلوب طلعت حرب الرصين، ولغته العالية الرفيعة وعلمه بشئون السينما، كما أسعدهم هذا الخيال الممتع اللذيذ، خيال أن يتوافر لهم، جهاز سينما، إخبارى تثقيفى تعليمى تسجيلى دعائي. وقد بقى قول الشاعر «فليسعد النطق أن لم يسعد الحال» شعارًا جميلاً ومتجددًا للمحرومين في كل زمان ومكان.

فالخطاب حقق لطلعت حرب نفعًا كبيرًا، إذ أطلع الناس، على علمه وعلى أدبه، وعلى طموحه، وعلى ما يعتزمه لبلده في حقل السينما من مشروعات بعيدة المدى، عظيمة الأثر، بالغة القيمة.

على أنه إلى جانب هذه المصلحة المباشرة والشخصية، فقد حقق الخطاب مصلحة لبنك مصر وشركاته خيرًا ، لأن الخطاب كشف للناس، ما يشغل بال القائم على هذا البنك وتلك الشركات من أفكار، وما يساوره من آمال، وما يعده لبلده من أعمال.

على أن الحافز الرئيسى والأصيل وراء هذا الخطاب، هو أنه ينفس عما تمتلئ به نفس طلعت حرب من الرغبة المتأججة، لما لا نستطيع أن نسميه إلا بلفظى (الإرشاد القومى) وقد يحسن أن نقف هنا قليلاً لنميز بين ثلاثة

أنواع من النشاط، يدخل فى ميدان الدعوة ويختلط بعضه ببعض عند الناس، مع أن لكل منها هدفه ووسيلته، وعقليته وأسلوبه، وهى:

أولاً: الدعاية.

ثانيًا: الإعلام.

ثالثًا: الإرشاد القومى.

كل أولئك دعاية وتوجيه وإعلام وإرشاد، وتوعية وتثقيف، ولكن الدعاية هى أولاً وقبل كل شىء، إبراز الحسن من عمل الدولة أو الشركة أو المؤسسة أو الجماعة أو الحرب والمبالغة فى إظهاره، ثم هى ستر للعيب، والإسراف فى التغطية عليه، وإنكاره واتهام القائلين به أو المشيرين إليه، بسوء الغرض. ثم هى كشف عورات العدو الحقيقية والمبالغة فى مداها، والإلحاح فى ذكرها، والعودة إلى ذلك، والمثابرة عليه، ثم خلق ما لا يوجد من العيوب، وإنكار كل خير للعدو، وصرف الأنظار عن أفعاله، وشغله بما يمنعه من التحدث عنها.

وقد كانت ألمانيا النازية، هى أول من أنشأ وزارة للدعاية، صراحة، كان زعيمها وأول من أعلن فى كتابه الرسمى Mein Kamps «كفاحى» أهمية الدعاية، وبين أثرها فى الشعب والعدو، معًا، ثم أسند هذه الوزارة لواحد من أكبر أعوانه وأبرزهم هو الدكتور (جيبلز) الذى شمل نفوذه واختصاصه، كل ما يؤثر على عقلية الشعب ومزاجه وعقيدته وذوقه، من سينما ومسرح وصحافة وكتب. وقد حقق جيبلز، فى الداخل والخارج، نجاحًا عظيمًا، من الناحية الدعائية البحتة، وقد استعان فى نشاطه الواسع الرهيب، بأساتذة التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع والأدباء والمسرحيين والنقاد والممثلين والمخرجين، وأخرج الكثير من المطبوعات والنشرات والكتب والصحف والأشرطة والاسطوانات، لتنقل إلى الناس

أفكار الزعيم وأفكار الحزب، ولتؤكد معتقداته، وتثبت فى عقول وقلوب الشباب، فى داخل ألمانيا وخارجها، دعاويه واتهاماته.

وقد كان رد فعل الإنجليز، كعادتهم، أنهم نظموا هذا الجانب عندهم، وقد كان كبير المقام لديهم دائمًا، ولكنهم أحسوا بوطأة الدعاية الألمانية، وتشعب أساليبها، وتنوع المجارى والقنوات التى تتسرب منها إلى الرأى العام الأوروبى والعالمى، وبكفاية القائمين على هذه الدعاية، ونشاطهم، وتجدد طرائقهم، ولطف مداخلهم، وحسن صلاتهم فى كل مجتمع أوروبى، بأصحاب الرأى. فأنشئوا أجهزة مختلفة لمواجهة هذا الهجوم الزاحف والمحيط بهم من كل جانب، ولكنهم جريًا على عادتهم فى النفاق سموا وزارتهم وزارة المعلومات، فأنشئوا المجلس البريطانى للعلوم والفنون أسندوا إليه ما أسند فيما بعد إلى وزارات فى مصر وغيرها حملت اسم وزارة الثقافة. ومن هنا، نشأ لفظ الإعلام. وهو لا يختلف فى غايته ومرماه عن الدعاية، فيما عدا الادعاء، بأن ما تقوم به الوزارة هو إعلام، خاليا من الدعاية، بكل ما يثيره هذا اللفظ فى النفوس من احتجاج واعتراض. ولكن هذا الأثر قد زال ، إذ أصبح الإعلام صنوًا للدعاية.

أما الإرشاد القومى، فنشاطه يوجه أولاً وقبل كل شىء إلى أبناء الوطن فى الداخل، وهو لا يعنى الدعاية وحدها، بأهدافها التى حددناها وعددناها، وإنما يعنى إلى جانب أهداف الدعاية السياسية الوطنية، أو الحزبية الداخلية، هدفًا قوميًا، يمتزج فيه التعليم بالإعلام، والثقافة القومية بالتوجيه، فهو لا يدعى أنه محايد بحيث يقتصر عمله على وضع المعلومات والأنباء المجردة تحت نظر أو سمع من يوجه إليه الإعلام كما لايبغى أن يلوى أذهان الناس ليا، ليتلقوا ما يريد أن يلقنهم إياه، لأنه إلى جانب هذه الغاية التى قد تحتاج إليها الدولة، تبقى حاجتها إلى الإرشاد القومى، وهى رفع مستوى الذوق عند المواطنين، وتزويدهم بمعلومات عن

وطنهم، وتاريخهم، وثقافتهم، وفنونهم، وأمجادهم وأبطالهم، وعن صلات بلادهم بالذين حولهم وبالعالم كله، وتهيئتهم للبذل والتضحية والابتكار والخلق والتعلم والمجازفة، واستثارة أفضل صفاتهم وأخلاقهم كل ذلك بالعمل الفنى، من مقال وكتاب وصورة ومعرض ورحلة وشريط وإسطوانة ومناظرة ومحاضرة ومتحف. فالإرشاد القومى، ليس عدو الثقافة فلا هو يمسخها ولا يزيفها، ولا هو عدو للجيد أو الأصيل أو الصادق، أو الجميل أو الرقيق، بل أن هذا كله، هدفه ووسيلته معًا. وقد كانت حاجة بلادنا إلى هذا الإرشاد القومى، شديدة فى جميع أدوار حياتها الحديثة، وقد بقى مرفقًا مهجورًا ومهملاً، ولكن طلعت حرب، بوصفه مؤسس دولة كما قلت وكررت، كان شديد الإحساس بالحاجة إلى إقامة هذا المرفق، والاهتمام به، والإنفاق عليه، والسهر على تجديده وتوسيعه، ولقد عبر عن هذا الشعور بأحسن أسلوب وأوضحه فى خطاب يومى ٢٩ و٣٠ مارس سنة ١٩٢٧.

وسنوجز هذا الخطاب، ونتنقل مع فقراته، التى تمثل كل فقرة منها جانبا حيويًا من جوانب الإرشاد القومى، فى أعلى صوره، وأوسع آفاقه.

بدأ طلعت حرب بأنه كان يتمنى أن يعرض على ضيوفه ؛ بدلاً من الأشرطة القصيرة، رواية مصرية: مصرية فى موضوعها، وفى أشخاصها، وفى مناظرها، وفى صناعتها. ومجرد التشوق إلى رواية سينمائية مصرية، علامة على إحساس قومى وفنى صحى وسليم، ولكنه اعترف بأن إخراج رواية عمومًا، ومصرية خصوصًا، أمر فوق طاقة الشركة وقدرتها، فى المرحلة التى كانت تمر بها سنة ١٩٢٧، العام الذى ألقى فيه خطابه.

ثم تحدث عن اختراع السينما سنة ١٨٩٥، وما للرواية السينمائية من أثر فى جذب المشاهدين وبما تدفعه شركات السينما من أجل إنتاج روايات عظيمة، من جهد ومال، وما تلتزمه من نظام وتخصص. وقد بالغ فى تناول تفاصيل لم يكن بحاجة إليها، لولا رغبته فى الإذلال بعلمه، فى أمور،

يبدو أنه بعيد عنها فقال مثلاً: فبالإشارة وحدها، الإشارة بـاليد وخصوصا الإشارة بالعين يتفاضل الممثلون الماهرون بعضهم عن بعض، ولست أدرى ما المقصود بالإشارة بالعين التى يتفاضل بها الممثلون بعضـهم عـن بعـض عنـد طلعت حرب، ولكنها عبارة تدل على مدى اهتمام طلعت حرب بهذا اللون من الإنتاج.

وخرج من هذا إلى تقرير حقيقى لا يعارضه فيه أحـد إذ قـال: فالسـينما أكبر اختراع عصرى صادف هوى فى النفوس فأصبح قوة جذابـة مـن قـوى العصر، وسيبقى كذلك مع توالى العصور، سيما وأن التحسينات المتوقعة لـه فوق ما يتصوره العقل..

وقد كان كلام طلعت حرب صحيحًا، وكانت توقعاته صادقة وصائبة.

ثم تحدث عن خطر السينما، على الأخلاق لعرضـها صـورًا منحطـة مـن الناس، كما ظهرت على الشاشة الجرائم وكيف تدبـر، والجنايـات وكيـف ترتكـب، وشـغله كذلـك مـا يتعـرض لـه أطفالنـا مـن خطـر مشـاهدة هـذه الروايات، وقال إن الامتيازات الأجنبية قد تحول دون إصدار تشريع يمنـع هؤلاء من ارتياد الأفلام الضارة.

ثم عاد يتحدث عن الأمل الذى يساوره فى إنتاج رواية مصرية سينمائية يمكن عرضها فى مصر والبلاد الشرقية المجاورة؛ فقد كان إلى هـذا التـاريخ لا يستعمل لفظ البلاد العربية، ثم تحدث عـن مصنـع للسـينما فـى مصر، وذكر التفاصيل الفنيـة المكونـة لهـذا المصنـع مـن تصويـر وتحميـض وآلات لوضـع العنـاوين (وآلات ومعـدات أخـرى يطـول أمـر بيانـها) وأعلـن عـن المتاعب التى عاناها (فى تكوين جماعـة الفنيـين اللازمـة لأعمـال المصنـع حتـى انتـهينا بعـد عـامين إلى اسـتخدام جماعـة مـن الفنيـين الأوربيـين القادرين) ثم تساءل بقوله: وجد المصنـع ووجـد العمـال، فمـاذا نصنـع بـه وبهم؟.

وأجاب على سؤال نفسه بأنه ليس فى النية آنذاك أن يقوم أو يشجع على إخراج وإنتاج رواية كاملة. فإذا طرح الرواية من عمله فماذا هو صانع؟.

هنا استرسل طلعت حرب فى بيان الميادين المختلفة التى يستطيع مصنعه الذى يزهو به، والذى يقول إن بعض الذين رأوه، قرروا له، أن هوليود، على غناها، لا يوجد فيها مثل مصنع شركة مصر للتمثيل والسينما، ولا نحب أن نقف أمام هذا الكلام، لأننا لسنا بصدد وزنه، بقدر ما نحن بصدد بيان جوانب من عقل طلعت حرب وطموحه الروحى والثقافى، وشعوره (بالإرشاد القومى) والحاجة إليه، وبصورة هذا الإرشاد القومى، فى نفسه ووجدانه.

قال هناك: مناظر الطبيعة فى مصر أو ما نسميه بالأفلام التسجيلية، وإلى جانب مناظر الطبيعة الجميلة فى مصر فى النيل والصحراء والقرية والواحة، توجد مظاهر العمران الحديثة فى المدن، ثم الآثار الفرعونية والعربية.

ثم الأفلام التعليمية، عن زراعة القطن مثلاً فى أدوارها المختلفة، ثم جَنْيه وحلجه وتصديره، كذلك زراعة الأرز وبقية الفواكه والخضراوات وعاداتنا وأحوالنا الزراعية.

ثم الصناعات المصرية الكبيرة مثل تكرير السكر، وصناعة الحرير وسلات القش ثم السينما الإعلانية التى يجب وضعها فى خدمة المتاجر والشركات والمصانع ثم العودة إلى السينما التسجيلية والتعليمية التى تشرح أعمال الوزارات والإدارات ثم الدعاية الصحية، ثم السينما التوثيقية التى تسجل الأحداث التاريخية كافتتاح المجلس النيابى، وبداية إقامة قناطر جديدة، أو كشف أثرى.

وأفلام الفنون الشعبية والحفلات القومية كحفلات خروج المحمل وعودته، وموكب رؤية هلال رمضان، وأفلام مستندية.

ثم تحدث عن سينما الدعاية السياسية، وأطال فى الحديث عن الأفلام التعليمية، وعن أن السينما سلاح عصرى للتعليم لاغنى لمصر عن استخدامه فى إرشاد سواد الناس إلى ما يراد إرشادهم إليه، حتى تزول الأمية، وفى تعليم الطلبة والتلاميذ فى مدارسهم أسوة بالدول الأجنبية الراقية، وفى إفادة الخاصة بتعريفهم أشياء قد لا يعرفونها قبل أن يروها فوق اللوحة البيضاء.

وبهذه الكلمات لخص رسالة السينما فى رأيه، ولخص مفهومه للإرشاد القومى.

ثم ختم هذا كله بقوله:

أما جوابنا على سؤالنا الآخر الخاص بطريقة انتفاعنا بما نصنع من أشرطة، فهو أننا لا نصنع أشرطة لنتاجر بها تجارة الأجانب فى الأشرطة المصنوعة فى الخارج إنما نحن أنشأنا شركتنا ، ونصنع أشرطتنا لأداء خدمة عامة هى المعاونة فى بث المعلومات النافعة وأداء وظيفة متواضعة فى التعليم بطريقة السينما الحديثة التى تتمم طرائق التعليم القديمة.

هذه هى وظيفة السينما عند طلعت حرب، وهى وظيفة المسرح عنده. فطلعت حرب أسس شركة التمثيل والسينما معًا، وأقام مسرح الأزبكية، وكان ثانى مسرح بنى خصيصا للتمثيل بعد مسرح الأوبرا، فمسارح العاصمة الأخرى كلها أو أكثرها على الأقل لم تبنَ لهذه الوظيفة.

ولم يكن غرض طلعت حرب من إقامة المسرح، ومن العناية بصفة خاصة بالمسرح الغنائى، حبا خاصا منه للتمثيل، فالمقربون منه، لا يروون عنه اهتمامًا خاصة بالتمثيل أو الغناء، وإن أحب الغناء العربى، إلا أن عنايته

بالمسرح، كانت من قبيل عنايته بالسينما. يصدر فى الحالين، عن شعوره القومى، بعظم أثر هذين الفنين فى الشعوب، وبأن النهضة الروحية، لا تكمل إلا بالعناية بهذه المعاهد، فليس الأمر عنده، اهتمامًا شخصيًا بالفن، وإنما هو اهتمام المصلح والمؤسس، الذى يعرف ما يلزم للبناء الشامل الذى يريده، فيعمل على استكماله، أحب هو هذه العناصر المكونة أو المكملة للبناء أو قل اهتمامه بها، أو كره بعضها أو شيئًا فيها.

وقد استطاع مسرح الأزبكية ، التابع لشركة مصر للتمثيل والسينما، الذى أنشئ وأقيم، ولهيب ثورة سنة ١٩١٩، لا يزال متقدًا، أن يحقق للفن المسرحى أمورًا منها إخراج عدد غير قليل من الأوبريتات المصرية التى جلت موهبة التلحين عند الملحنين المصريين مثل كامل الخلعى، وداود حسنى وسيد درويش، كما أتاحت الفرصة لعدد من المؤلفين الجدد مثل توفيق الحكيم، وحسين فوزى، وإبراهيم رمزى، وعمر عارف، وإبراهيم جلال وعباس علام، أن يقدموا إنتاجهم ولا يزال الناس يذكرون الروايات التى مثلت على خشبة المسرح كشمشون ودليلة، وعبد الرحمن الناصر، وهدى، وعلى بابا، وزواج مصلحة، والعمدة، والمرأة الجديدة. ولابد أن يستوقفنا هنا، أن طلعت حرب الذى احتفل بالمسرح المصرى هذا الاحتفال، والذى أقام هذا المبنى العربى، وأنفق عليه، وعلى الروايات التمثيلية والغنائية ما أنفق، هو هو طلعت حرب الذى انبرى يرد على قاسم أمين فى أخريات القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين والقائل بأن سفور المرأة وخلع الحجاب ، أمر جائز شرعًا، وهو ما لا يتفق مع اهتمامه بنهضة التمثيل بالمسرح المصرى أو العربى، واهتمامه بمولد الرواية المسرحية أو السينمائية، وإذ يعلم جيدًا أن المسرح والسينما، بغير الممثلات، لا وجود له، وقد رأى بنفسه مسرحيات فى باريس، وأعجب بها، وصنفها فى خطابه للطلبة المصريين فى فرنسا.

والحق أن موقف طلعت حرب فى الأمرين لا تناقض فيه. فهو فى رده على كتابى قاسم أمين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» بكتابه «تربية المرأة والحجاب» و«فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» لم يكن خصما لتربية المرأة وتعليمها، ولا منكرًا لحق من حقوقها بل أن رده قام أصلاً على أن الإسلام كفل للمرأة من الحقوق، ما لا تتمتع به المرأة الأوربية السافرة، وأن قاسم أمين نفسه مقر بذلك فى رده على كتاب الدوق داركور الذى أصدره سنة ١٨٩٤ ورمى فيه الإسلام بمعاداة التقدم. فطلعت حرب لم يكشف فى رده على قاسم أمين عن نظرة اجتماعية متخلفة أو جامدة: فقد كان معتدلاً، مقرًا فى الوقت نفسه إذ نادى بوجوب تربية المرأة وتهذيبها، قبل تربية الذكور وتهذيبهم. والحق أن الوطنيين والمسلمين جميعًا، كانوا يخافون الدعوة إلى السفور، ويكرهونها، لأنهم يتوجسون من البواعث التى تكمن خلفها، والتى قد يكون الاستعماريون أصحاب المصلحة فيها. والثابت أن قاسم أمين الداعى إلى تحرير المرأة، كان ضمن جماعة وثيقة الصلة باللورد كرومر ألد أعداء الإسلام والقضية المصرية. وكانوا يرون أن إثارة هذه الدعوة فى الوقت الذى دبت فيه الحياة فى الحركة الوطنية، لأمر يوجب الإشفاق والحذر، كما يوجب الإشفاق والحذر من الدعوة إلى تجديد التفكير الدينى فى هذه الفترة بالذات ، لأن المنطق البسيط يقضى بأن اللورد كرومر وأمثاله، ومن يتعاونون به، ويعتمدون عليه مسلمين كانوا أو أجانب، لا يمكن أن يضمروا للإسلام خيرا، ولا يهمهم من أمر المرأة المسلمة، إلا أن تتأكد سلطتهم على مصر، وأن تقوم الفتن التى تمزق وحدة الوطنيين.

ولقد كانت الجزائر مثلا على ذلك، فقد كان الحجاب، والحرب ضد فرنسا، شيئين متلازمين فقد أحس الشعب الجزائرى، أن الاستمساك بالتقاليد الجزائرية، هو عنصر من عنصر الكيان الاستقلالى للجزائر عن

فرنسا وثقافتها وأسلوب حياتها، وأن الإبقاء على المجتمع الإسلامى بخصائصه الموروثة، وإن كان بعضها قد فقد مبرره، أو تعفن ، خير من فتح باب التطور الذى يضعف قوى الرفض فى المجتمع الجزائرى، وقد يخفف من العداء لفرنسا ، وكل ما يتصل بها.

ولقد أثبت طلعت حرب عدو الدعوة إلى السفور سنة ١٨٩٨ و١٩٠١، أنه عمل من أجل حرية المرأة وسفورها، أكثر مما عمل دعاة تحرير المرأة، وذلك بعد أن زالت الظروف الملابسة لدعوة قاسم أمين، ومبررات التوجس والاشتباه فى دوافعها الظاهرة أو الخفية. فمدرسة الطيران فى شركة مصر للطيران أخرجت أكثر من طيارة كلطيفة النادى، وعصمت فؤاد وقد نشر لطلعت حرب صور مع هذه الطيارة، ومنحها كأس التفوق بحضور هدى شعراوى، رئيسة الاتحاد النسائى. وفى مسرح الأزبكية مثلت سيدات وآنسات مسلمات ومسيحيات مصريات ولبنانيات، كما اشتغل فى مصانع شركة مصر للغزل والنسج وغيرها مئات من الفتيات المصريات، خلال حياة طلعت حرب ، وبعد وفاته، فكان طلعت حرب، بمنشآته وشركاته ونشاطه كله محررًا للمرأة فعلاً لا قولاً، وكان فى هذا النشاط الواسع المتجدد والمتنوع، واضعًا لأكثر من لبنة فى بناء الإرشاد القومى، الذى تحتاج إليه بلادنا، كلما خطت إلى الأمام أو كلما خاضت حربًا، أو مرت فى ضيق، أو تألب عليها الأعداء.